شغف الرحّالة العرب بالتعرف على أوروبا: (التعارف سبيلاً لحوار الحضارات)

شمس الدين الكيلاني

لقد حثَّ الإسلام على الرحلة والتجوال، بقصد التأمل في مخلوقات اللّه التي تدلُّ على عظمة الخالق، وللاتعاظ من آثار الأمم البائدة، والتعرف على الحضارات القائمة للاعتبار[1]. فكانوا يتلون آيات القرآن التي تحمل تلك الدلالات: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ..﴾ (غافر، الآية 82) والآية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا..﴾ (الحج، الآية 46) والآية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام، الآية 11). وروى أبو هريرة عن النبي قوله: «اللهم أنت الصاحب في السفر..»، ونسب بعض المحدّثين إلى النبي القول: «اطلبوا العلم ولو في الصين». فضلاً عن ذلك، فقد خفَّف الإسلام عن المسافر، تسهيلاً للسفر، بعض الواجبات الدينية في الصوم والصلاة «فليس على المسافر حرج»، ولعل إباحته لتعدد الزوجات يتضمن التخفيف من عبء السفر[2]. ويذكر الإمام الغزالي، أن السفر سفران: «سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات، وسفر بسير القلب من أسفل السافلين إلى ملكوت السموات، وأشرف السفرين السفر الباطن. فإن الواقف على الحال التي نشأ

---

(1) حسين نصار: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة 1991، ص 4.

(2) المصدر نفسه، ص 4. راجع أيضاً حميدة، عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق 1984، ص 42.

عليها عقب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد، لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاء: ﴿. . وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ. .﴾ (آل عمران، الآية 133) ظلمة السجن وضيق الحبس»[1].

لكن العامل الحاسم في ازدهار الرحلات، وبعث النشاط فيها إلى أوروبا وغيرها من البلدان، هو تحوّل المسلمين إلى دولة كونية كبرى، فرضت عليهم ضرورة التعرف على الذات والآخر المحيط بهم، وعلى العالم؛ فقد اندفع العرب ـ المسلمون ينشرون الإسلام إلى إسبانيا غرباً، وإلى الصين والهند شرقاً، فأخضعوا بلاد الشام ومصر التابعة للروم، وبلاد العجم والعراق التابعَين للدولة الساسانية، وكسبوا معركة ذات الصواري البحرية ضد بيزنطة عام 654م، وفتحوا السند بقيادة محمد القاسم عام 713م، ووصلوا إلى تركستان الصينية عام 715م، وحاصروا القسطنطينية ذاتها في غزاةٍ حضرها الصحابي أبو أيوب الأنصاري عام 717م. وقد حدث هذا التوسع كله خلال قرن من الزمان، تعرف العرب خلاله على بلاد ذات حضارات متنوعة، أفادوا منها ودمجوها في ثقافتهم العربية ـ الإسلامية، فما أقبل القرن الثالث الهجري حتى صار العرب ـ المسلمون إمبراطورية فسيحة الأرجاء لها امتدادات عالمية، تمازجت فيها الشعوب في بوتقة الإسلام كدين، والعربية كلغة، حيث تبنت المدينة العربية ـ الإسلامية، ومعها نخبها الإدارية والثقافية والعسكرية، العربية لغة للثقافة. وتجلّت في داخل هذه الإمبراطورية أخوة روحية إسلامية، وازدادت معها معرفة حدود البلدان، وعادات الشعوب وتقاليدها؛ وساعد على هذا التقصّي المعرفي الترحّل في الأرجاء الشاسعة لدار الإسلام التي كانت مفتوحة أمام المسافر دون حرج ولا عائق، وسهلت الدول المركزية نفسها عملية الترحال والانتقال باعتنائها بنظام البريد، وبتمهيدها للطرق، وبتشييدها المحطات أمام المسافرين والرحالة والحجاج[2].

---

(1) الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت 1994، ص 267.

(2) نصار، المصدر السابق، ص 5.

فبعد حقبة الفتوح السريعة والحاسمة، امتدت مملكة الإسلام من جبال البيرنيه حتى تخوم الصين، وضمَّت في جنباتها بلاد العرب الحالية وفارس وأفغانستان وأرمينيا وإسبانيا، بما في ذلك البرتغال، سرعان ما انضافت إلى تلك الأقطار جزر البحر الأبيض المتوسط: كالبليار وصقلية ومالطة وقريطش وقبرص، ثم ما لبث العرب، في مناخهم العالمي الجديد، أن تحولوا من فاتحين إلى رحالة كبار وملاحين مهرة وتجار تمكنوا من التعرُّف على سائر الأقطار الواقعة على ضفاف المتوسط والبحر الأحمر وقزوين والبحر الأسود، فضلاً عن المحيط الهندي وجزءًا من سواحل الأطلسي في أوروبا وإفريقيا. ثم ما لبث مؤرخو الفتوحات والرحالة والجغرافيون والتجار أن قاموا بوصف تلك الأصقاع المترامية الأطراف، ودونوا مشاهداتهم عن سكانها ونباتها وحيوانها[1].

أقامت الخلافة العربية كياناً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً موحداً شمل الرقعة الهلنستية القديمة والقسم الجنوبي من الإمبراطورية الرومانية، وامتدت إلى تخوم إفريقيا السوداء، ومن نهر الهندوس إلى الأطلسي، وكانت في أساسها حضارة مدن انتعشت في إطارها صلاتها الاقتصادية بالعالم، فلم تتوقف علاقاتها الاقتصادية مع أوروبا رغم احتدام الصراع أحياناً، والشعوب بالتهديد وخطر الاجتياح. وكثر تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالة[2]، مع ازدياد الرغبة في اكتشاف الآخر وتكوين صورة له، سواء كان هذا الآخر الداخلي في إطار دار الإسلام، أم خارجي بما فيه الآخر الأوروبي؛ ولا سيما بعد أن أصبحت بغداد، حاضرة الخلافة العباسية، أهم مراكز الحضارة العالمية، تحفّها من جوانبها المختلفة مراكز حضارات العالم القديم، الهند والصين من الشرق، وأوروبا من الشمال والغرب. وتتبادل المنافع التجارية

(1) بشير صفير: الجغرافيون العرب، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984، ص 16.

(2) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1962، ص 11.

المتعاظمة مع سواحل الشرق الإفريقي عن طريق مسقط وصحار في عُمان وعدن، وغدت أراضيها نقطة التقاء الطرق التجارية الذاهبة من شمال أوروبا عبر أراضي بيزنطة إلى شمال البحر الأسود وبحر قزوين إلى خراسان والري. وللطرق المؤدية من غرب أوروبا وشمالها المارة بالبندقية ثم المتوسط. فالوضع الناشئ عن قيام الخلافة العربية الإسلامية بمقاييس امتدادها العالمي، أعاد اتصال الغرب ـ كما يقول لومبار ـ مع الحضارات الشرقية ومن خلالها، مع الحركات العالمية الكبرى للتجارة والثقافة[1]. وغدت دار الإسلام تقع في منطقة المضايق، بين الخليج العربي، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود، وبحر قزوين؛ أي في منطقة تشكل صلة وصل بين منطقتين اقتصاديتين كبيريتين: منطقة المحيط الهندي ومنطق البحر الأبيض المتوسط. هاتان المنطقتان اللتان توحدتا في العصر الهلنستي، ثم انفصلتا إلى عالمين متنافسين الروما ـ بيزنطي والبارثي ـ الساساني، امتزجتا من جديد بفضل الفتح الإسلامي في منطقة جديدة واسعة موحدة اقتصادياً[2]. فصار المجال الإسلامي برزخاً تتلاقى عليه خطوط التجارة العالمية وتتقاطع، ثم تتفرع التجارة منه إلى أوروبا وبقية العالم. فكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كما يقول متز Mezh، مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البلاد والبحار. واحتلت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، حيث غدت بغداد والإسكندرية هما المدينتان اللتان تقرران الأسعار العالمية في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل[3].

وبالإضافة إلى دور الوسيط التجاري بين أوروبا والشرق الأقصى، فإن

(1) موريس لومبار: الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت 1977، ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

(3) آدم ميتز: الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1948، ص 172.

العرب ـ المسلمين لم تتوقف علاقاتهم التجارية مع أوروبا، إذ وجد الدارسون في إسكندينافيا، وفي السويد خاصة عشرات الآلاف من النقود الإسلامية تحمل نقوشاً يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وهي فترة ازدهار التجارة الإسلامية؛ كما يؤيد ما وجد من قطع نقود على مجرى الفولغا (آل) ما في المصادر الأوروبية من شواهد على قيام تجارة واسعة بين الإمبراطورية الإسلامية وبلاد البلطيق عبر بحر الخزر والبحر الأسود والروسيا، وأهم ما كان يأخذه العرب من هذه البلاد هو الفراء والعبيد. وتبدو أهمية التجارة العربية مع الشمال الأوروبي بصورة أوضح في حقيقة أن النقود السويدية المعروفة أساسها الدرهم، وأن كلمات عربية كثيرة موجودة في الأدب الإيسلندي القديم[1].

وكان هناك تجاربة على مجاري نهر الفولغا والدون والدنيبر، واحتلت مدينة كييف على الدنيبر أهمية خاصة في تجارة المسلمين مع الصقالبة، كما كانت نقطة وصل مع وسط أوروبا؛ إذ كانت تستلم البضائع من براغ وريفنسبرغ في ألمانيا عبر بلاد الصقالبة والهنغار الفاصلة بين أوكرانيا ووسط أوروبا، وكان التجار الوسطاء في هذه المبادلات من المسلمين واليهود، ولم يكن طريق الدنيبر إلا واحداً من الطرق التي أدت من وسط أوروبا وغربها إلى دار الإسلام؛ فقد ورَّدت براغ بضاغتها عبر مدينة البندقية إلى القسطنطينية أو مباشرة إلى مصر؛ وتم استيراد السيوف الفرنجية عن طريقي الأندلس وبلاد الصقالبة، والقصدير البريطاني عن طريق إسبانية والبندقية[2]. فعلى عكس ما يذهب إليه هنري بيرين من أن سيطرة العرب على المتوسط قطعت سريان التبادلات التجارية بين أطرافه، وأضعفت الحياة المدينية في أوروبا. يؤكد كلود كاهن ومعه آخرون، أن الاتصالات وإن لم تتم بين العالمين الإسلامي والأوروبي والمسيحي بشكل مباشر حتى القرن العاشر ميلادي، فإن هذا لم

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، تعريب أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت 1954، ص 125 ـ 126.

(2) عزيز العظمة: العرب والبرابرة ـ المسلمون والحضارات الأخرى، دار الريس، لندن 1991، ص 28 ـ 29.

يمنع من أن يلعب اليهود والمسلمون، المنتمون إلى غرب المتوسط، دوراً تجارياً. وظل سيل الاتصالات محصور إلى حين في مناطق معينة مثل البندقية وشمال إفريقيا وما يجاورها، وبيزنطة وجوارها[1].

وفي حال بيزنطة، فعلى الرغم من أجواء التهديد المتبادل، لم تنقطع العلاقات التجارية والثقافية، بل والسياسية، بين العالمين الإسلامي والبيزنطي، وقد بيَّن (جب) أن هذه العلاقات المتنوعة تجاوزت حقبة العداوة السابقة، فرغم أن الروم كانوا في نظر العرب العدو الذي طردوه من الشام ومصر، وأخذوا يتعقبونه بحراً في قبرص ورودس، إلا أنه لما قامت الدولة الأموية أخذت الحال تتغير تغيراً دقيقاً. وكانت البندقية في القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن[2]. ويؤكد آشتور على هذه الواقعة بقوله: «ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية، كانت لمدة أربعة قرون العدو التقليدي للإمبراطورية الإسلامية، وإن الحرب المتقطعة استمرت عبر العصور فإن المسلمين مارسوا التجارة المستمرة معها، ويبدو أن طربزون كانت المركز التجاري للإمبراطورية البيزنطية، حيث حصل التجار المسلمون على الجزء الأعظم من المنتجات الإغريقية، والمطرزات، والمواد الأخرى التي يرغبون في الحصول عليها»[3].

ولقد غدا البحر المتوسط لفترة طويلة في قبضة العرب . المسلمين، إذ لم يعد لأوروبا، كما يذهب ميتز، سلطان عليه خلال القرن العاشر الميلادي «فقد كان بحراً عربياً، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ودَّ العرب، كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي»[4]. ويذهب بروديل

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة 1995، ص 59.

(2) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم، ومحمود زايد، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت 1979، ص 63.

(3) أ، آشتور: التاريخ الاقتصاي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصر الوسيط، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق 1985، ص 118س.

(4) متز، المصدر السابق، ج 2، ص 317.

بنفس الاتجاه، حيث يشير إلى أنه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين سيطر العرب، في ذروة ألق حضارتهم، على المتوسط، وكانت المسيحية، على حد تعبيره (لا تكاد تستطيع أن تعوِّم فيه قطعة خشب)[1]. ولكن هذا لم يقطع سبل الاتصال ما بين العالمين العربي والأوروبي، فإذا كان التجار العرب ـ المسلمون لم يقوموا هنا بدور الوسيط التجاري المباشر بين هذين العالمين، كما فعلوا في بحار آسيا، والأحمر، وذلك لعدم سماح الأوروبيين بوجود جالية إسلامية بين ظهرانيهم، فقد استعان العرب بالوسطاء الآخرين للاتجار مع أوروبا؛ فكان التجار اليهود يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون من فرنجة الخدم والجواري والديباج والخز الفائق، والفراء والسمور. ويركبون البحار ويخرجون إلى الفرما، بمصر، ثم يحملون تجارتهم إلى القلزم (البحر الأحمر)، ثم يركبون البحر الشرقي إلى جدة، ثم يبحرون إلى السند والهند والصين[2].

فهناك ما يميز اتصال العرب ـ المسلمين بأوروبا عن اتصالهم بالهند والصين، وكذلك أشكال علاقاتهم وسبلها، ففي الشرق وجد الرحالة العرب ـ المسلمون والتجار الحدود مفتوحة أمامهم، فأينما ذهبوا إلى الصين والهند وجدوا جاليات إسلامية بانتظارهم، أما في بيزنطة وبلاد الإفرنج، فلم يقبل أهلها وحكامها بوجود جاليات إسلامية بديارهم، فقد وجدوا فروقاً جذرية في علاقاتهم بالعالمين الشرقي والأوروبي. فالإمبراطورية الفارسية تداعت كلياً أمامهم، وعرفوا أن الهند والصين يعبدون آلهة متعددة، فاستنتجوا أنهم مهيؤون لدخول الإسلام «أما الحاجز البيزنطي، فقد اهتز ودُفع إلى الخلف أمام الزحف الإسلامي، ولكنه بقي صامداً. وظلت الإمبراطورية الرومانية المسيحية حية يحكمها قيصر في القسطنطينية، وحين كانت أساطيله وجيوشه تدافع عن مدينتها، فإنها لم تكن تحافظ على بقايا الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل

(1) فرنان برديل: البحر المتوسط، المجال والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق 1990، ص 14.

(2) متز، المصدر السابق، ص 273.

أيضاً عن أوروبا المسيحية»[1].

إلا أن مجال الاتصال بين العالمين، على الرغم من تميّزه عن الصلات القائمة بين المسلمين والهند والصين، لم يقتصر على التجارة وسبلها، فقد تعداه إلى الثقافة والسياسة، والتأثر بالنظم، وتبادل الرحلات والسفراء، إذ تخلّل هذا المناخ العام من الحذر الممتزج بالإعجاب، علاقات ثقافية وسياسية، فضلاً عن التجارية، إذ كان المجال الثقافي العربي الإسلامي منطقة تجارة عالمية كبرى، تعاملت مع ما خرج عن مجالها الثقافي تعاملاً تجارياً من ناحية، وتعاملاً معرفياً، وذلك عن طريق الرحلة التجارية والسفارة والكتب. وقد أهَّل موقع العرب الراجح في العالم الوسيط. لأن يتغذوا بالثقافات الأخرى، ويتعرفوا عليها من موقع الثقة بالذات، فضلاً على أن الثقافة العربية ـ الإسلامية لم تكن وليدة حضارة تداخلت واتصلت بكل الحضارات الأخرى القائمة في زمانها فحسب، وإنما كانت خلافاً للحضارتين الصينية والهندية، مسرحاً للتاريخ العالمي في زمانها، وكانت العامل الفاعل والأساسي في علاقاتها بالآخرين. إذ كانت هي عصب التجارة الدولية، كما احتلَّت في العالم موقعاً مركزياً، مطلاً على جميع الأطراف، وكانت هي المتوسطة والنشطة والنامية ثقافياً وحضارياً، والمنتجة للجدة[2].

فاستطاع العرب المسلمون التعرُّف على ثقافة الفرس، والهند، والصين، فضلاً عن الثقافة اليونانية، بينما لم تتعرف أوروبا الغربية على تلك الثقافات حتى عصر النهضة، كذلك فقد تعرفوا على خبرة الحكم والإدارة، وتراث بيزنطة الشرقية، في وقت كانت فيه أوروبا، كما يقول لويس: «معزولة بين المياه المتجمدة شمالاً، ومياه المحيط غرباً، والإسلام جنوباً، والبراري شرقاً، أما الإسلام فكان على اتصال دائم مع الحضارات المزدهرة في الهند

(1) برنارد لويس: السياسة والحرب ـ تراث الإسلام، قسم أول، تصنيف شاخت، وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978، ص 258.

(2) العظمة، المصدر السابق، ص ص 17 و230.

والصين، في ساعات الحرب أو السلم»[1]. لهذا يلاحظ كراتشكوفسكي الاتساع الهائل في مدى المعلومات عن العالم لدى المسلمين، بالمقارنة بما عرفه العالم القديم، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى الشمال، وعرفوا النصف الجنوبي من روسيا، كما عرفوا إفريقيا الشمالية إلى خط عرض (10 درجات) شمالاً، وجانب إفريقيا الشرقي إلى قرب مدار الجدي، وترك العرب وصفاً دقيقاً لجميع النقاط المأهولة، وللمناطق المزروعة، والصحارى، وتبينوا انتشار النباتات المزروعة، وأماكن وجود المعادن[2].

وأفضى هذا الوضع المواتي الذي كان العالم الإسلامي ينعم به، وذكريات الانتصارات الباهرة الأولى التي أحرزتها جيوشه على بيزنطة وغيرها، إلى صيغ ومزج إحساسه ـ كما يقول غرونيباوم ـ «بالاكتفاء الذاتي بشعور من التفوق، كانت أحداث الزمان اللاحقة تفقده مبرراته»[3]. وبالتأكيد أن حالة ميزان القوى بين الطرفين أثر على زاوية رؤية كل منهما إلى الآخر، فقد ظلّت بيزنطة ومعها أوروبا في حالة دفاع عن النفس حتى القرن الحادي عشر، فقبل الحروب الصليبية، لم يحدث قطّ أن الإمبراطورية البيزنطية ولا أوروبا هدّدتها الإسلام بصورة جدية»[4].

إلا أن المناخ العام من الحذر الذي أحاط علاقة العرب ـ المسلمين ببيزنطة، لم يمنع العلاقات السلمية بينهما، فامتزج موقف العداوة المتبادلة بالإعجاب، يقول غرونيباوم: «من العجب أن يلحظ المرء كيف تسامت هيبة العرب في القسطنطينية، في الوقت نفسه الذي بلغت فيه علوم اليونان أقصى نفوذها في بغداد»[5].

---

(1) برنارد لويس: الإسلام والغرب، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، بيروت 1994، ص 11.

(2) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، 1994، ص 22.

(3) جوستاف أ. فون غرونيباوم: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (سلسلة عالم الأسرة)، دون تاريخ، ص 51.

(4) المصدر نفسه، ص 50.

(5) المصدر نفسه، ص 77.

وتتجلّى المنزلة الكريمة التي كانت تتمتع بها كل من الحضارتين في أرض الأخرى، بأحسن ما تتجلى في قصة ليون عالم الرياضيات البيزنطي، فقد اتفق أن أسر العرب يوماً أحد تلاميذ ليون، فأحضروه إلى المأمون، حيث أحدث وقعاً حسناً بحضور المأمون، بإظهاره الطرائق الصحيحة في الاستدلال الهندسي، فلما سُئل عن معلمه، وهل ما يزال حياً، أوضح لهم أن ليون يعيش مهملاً منسياً. فأرسل المأمون من فوره كتاباً إلى ليون يدعوه للحضور إلى بغداد؛ فعرض ليون الأمر على موظف بيزنطي كبير، أبلغه بدوره إلى الإمبراطور، فتنبه الجمهور والقادة من جراء هذه الدعوة لمواهب ليون، فعيّنه الإمبراطور معلماً عاماً في كنيسة الأربعين شهيداً. فلما علم المأمون بإحجام ليون عن الشخوص إلى بغداد، بادر إلى مراسلته مقدماً إليه عدداً من المسائل الهندسية والفلكية، ثم تحول إلى الإمبراطور نفسه يطلب منه أن يرسل إليه ليون، واعداً إياه بأجزل العطاء، ولكن الإمبراطور لم ير من الحكمة أن ينزل عن كنزه لسواه[1]؛ رغم أن المأمون قال في رسالته إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل: أنه يعتبر سماحه لليون بالمجيء إلى بغداد عملاً ودياً، يعرض عليه في مقابله صلحاً دائماً، وألفي قطعة ذهبية، غير أن ثيوفيل رفض هذا العرض السخي[2] ليحتفظ بكنزه الثمين.

بيد أن جواب ثيوفيل لم يغلق باب الاتصالات، فقد أرسل الإمبراطور ثيوفيل نفسه عام 829م إلى الخليفة المأمون يطلب منه تبادل الأسرى، وإعادة الحياة الاقتصادية بين المسلمين والروم، وجاء في الرسالة: «لقد كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة لتضع الحرب أوزارها عنا، ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق»[3]. في مقابل هذه العلاقات الرسمية/

(1) المصدر نفسه، ص 78 ـ 79.

(2) إبراهيم أحمد العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، (سلسلة إقرأ 179)، دار المعارف بمصر، 1957، ص 19.

(3) المصدر نفسه، ص 14.

الثقافية، كان يُسمح للمسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية، والاطلاع على الكتب التي يحتاجونها في دراساتهم المختلفة، وعاد بعضهم بالكتب النادرة[1]. فلا يمكن نسيان تأثير مؤلفات بطليموس وغيره من الجغرافيين اليونان، فضلاً عن فلاسفتهم ولا سيما أرسطو وأفلاطون على الثقافة العربية، التي قامت بدورها في إحياء الروح الفلسفية والعلمية مجدداً في أوروبا.

وهكذا بقي هامش من الوقت تبادل فيه الخلفاء المسلمون وقياصرة الروم الرسائل والهدايا، عن طريق الرسل، مع التبادلات الثقافية التي لم تتوقف، وامتزجت أحياناً السفارة بوظيفة ثقافية، فيروى أن المأمون، الخليفة العباسي الكبير، رأى في منامه أرسطو، الذي أخبره أن الحسن ما استحسنه العقل، وأنه في الشريعة هو ما استحسنه النص. فطلب المأمون الكتب من الإمبراطور البيزنطي، فوافق الأخير على الطلب بعد شيء من التسويف. وعند ذلك أرسل المأمون بعض العلماء إلى القسطنطينية للحصول على المخطوطات، وأرسل في من أرسل سهيلاً صاحب دار الحكمة[2].

تعمقت لدى العرب ـ المسلمين معرفة الجار الأوروبي، وغيره من الجيران، وذلك بالتزامن مع العلاقات السياسية والتجارية والثقافية، وساعد على ذلك حركة الترجمة في القرن الثالث هجري/التاسع الميلادي، وتوسع دائرة الرحلات والسفارة الجاسوسية إلى أوروبا. فبدأت تتضح لدى العرب ـ المسلمين بصورة تدريجية معالم صورة أوروبا، والتعرف على الآخر الأوروبي. فظهرت لديهم أوروبا وكأنها تتوزع إلى ثلاث مناطق، منطقة السلاف الصقالبة، ومنطقة رومية وبيزنطة، ومنطقة الفرنجة وما يحيطها في الشمال من النورمان والإسكندنافيين[3].

وهكذا فمع التشجيع الديني على الرحلة للتفكُّر بخلق الله، والاعتبار

(1) المصدر نفسه، ص 19.

(2) غرينباوم، المصدر السابق، ص 77.

(3) أندريه ميكيل: أوروبا في نظر العرب حتى عام ألف، ترجمة عادل عوا، منشورات عويدات، بيروت 1983، ص 90.

بحوادث الأمم الدارسة والباقية، أتى دور الدولة الإسلامية، التي غدت قوة عالمية كبرى، لتسهِّل على الرحالة ترحالهم، فقد كان لا بد لهذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء من أن تكون على دراية بأوضاع البلاد التابعة لها، وبأحوال البلاد المجاورة التي يمكن أن تكون مصدراً للتهديد أيضاً. فقد أرسل أكثر الخلفاء السفارات الدبلوماسية والعلمية إلى بلاد أوروبا، في الشرق وبيزنطة وبلاد الإفرنجة. فكانت هناك سفارة عمارة بن حمزة، الذي حمل رسالة المنصور إلى ملك الروم، ورحلة سلام الترجمان إلى بلاد الشمال، بأمر من الواثق، وسفارة يحيى الغزّال إلى بريطانيا، من طرف عبد الرحمن الثاني، فضلاً عن الجواسيس، وما نقله الأسرى المحررون من معلومات[1].

فإذا أردنا وضع الرحلات العربية والجغرافية في الإطار السياسي، يتضح مدى ارتباطها الحميم بالخلافة الإسلامية، وتوطد مكانتها العالمية. إذ عكست تلك الرحلات، وما ارتبط بها من جغرافيا، بأمانة كافية أزمنة ازدهار الخلافة وانهيارها. (فصورة الأرض) التي يعود تاريخها إلى المأمون تقسم العالم إلى أقاليم من حول بغداد، التي غدت تبعاً لهذا التصور مركز العالم، وسرته. ورتَّب الأدب الإداري، عند أصحاب الجغرافيا الإدارية، مع ابن خرداذبة واليعقوبي، حول بغداد/المركز، المناطق والطرق والضرائب. كما نشأ أدب السفارة بتشجيع من السلطة المركزية ذاتها في بغداد، وتطور أدب الرحلات، المتعلق بالمجال الأوروبي، بالارتباط بالهموم السياسية والتجارية للخلافة[2].

ففي ظل ازدهار الدولة العباسية واتساعها، تعدَّدت أسباب الرحلة وحوافزها، إذ حُبّب إلى الناس الهجرة من بلادهم للاطلاع على أحوال البلاد الأخرى، وذلك شأن الأمم القوية أيام ازدهارها، وقام علماء الرحلات يصنفون مشاهداتهم، وسهَّلت الحكومات مسار الرحلات والهجرات، ببناء رباطات ينزل بها المسافرون والرحالة والتجار، ويتزودون بها، والتي كانت في

(1) حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، الصمدر السابق، ص 50 ـ 51.

(2) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الأول. القسم الثاني، ترجمة إبراهيم خوري، وزارة الثقافة، دمشق، ص 151.

الأصل نقاطاً عسكرية لحفظ الحدود، أو نقاطاً بريدية، ثم أضافوا لها غراضاً آخر هو معونة التجار والمسافرين[1]. وغدت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهية، فقد رحل الناس للحج، ولزيارة مهبط الوحي، ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء مملكة الإسلام، ورحل الناس في سبيل الاتجار، إذ كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة ببعضها. بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرّق السياسي، لترسخ الشعور بوحدة الجماعة الإسلامية، ولاعتياد العالم الإسلامي على أسلوب معين من المعيشة، ونوعاً من الحياة، ولوناً من التفكير، ولانتشار اللغة العربية في شتى الأقطار. فدوَّن الكثير من الرحالة العرب أخبار رحلاتهم وأسفارهم، فذكروا المدن التي هبطوا فيها، والمسافات التي اجتازوها، ووصفوا البلاد وزرعها وصناعاتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان، فتعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح، وعابوا ما فيها من ضعف[2]. فكان من أهم أسباب تدوين الرحلات عند العرب المسلمين حاجة الدولة إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل الأقاليم ببعضها، واقترنت هذه الحاجة السياسية بقضاء فريضة الحج. فوصف الكثير من الحجاج مشاهداتهم إلى الأماكن المقدسة، وبجانب ذلك كان التجار يضربون في أراضي جديدة، عن طريق القوافل في البر، وعن طريق السفن في البحر، وكانت السفارات لا تفتر بين الدول العربية ـ الإسلامية، والدول المجاورة. كما أن مصالح الدولة التي غدت قوة عالمية، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها، بل صار من الضروري لها أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى، خاصة المتاخمة لها، فأتتها المعلومات عن طريق سفاراتها، وعن طريق أسراها المحررين، حيث دونوا معلوماتهم عن البلاد

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي، ط 5، بيروت 1969، ص 210 و215س.

(2) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1980، ص 15.

التي دخلوا إليها[1].

وقد أجمل ابن الفقيه القول في الغربة/الرحلة، التي غدت حكاياتها وعجائبها محببة في هذا العصر: «قال الله عزل وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ..﴾ وروى الزبير بن العوام، قال رسول الله (ص): البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيث ما أصبت خيراً فأقم. وقال: سافروا تغنموا. وقال (ص): موت الغريب شهادة... وقال النبي يوسف: من كان الله معه فلا غربة عليه... وقال شريح بن عبيد: ما مات غريب في أرض غربة.. إلا بكت السماء عليه والأرض.. وقال معاوية للحارث بن الحُباب: أي البلاد أحبُّ إليك؟ قال: ما حسنت فيه حالي، وعرض فيه جاهي. وأنشد:

فلا كوفة أمي ولا بصرة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل

.. وقال بعضهم: اطلبوا الرزق في البعد، فإنكم إن لم تغنموا مالاً كثيراً غنمتم عقلاً كبيراً... قالوا: لا توحشك الغُربة إذا آنست بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار، وقالوا: الفقر أوحش من الغربة، والغنى آنس من الوطن، وترك الوطن أدنى إلى فرح الإقامة. وقيل: الفقير في الأهل مصروم، والغني في الغربة موصول». ثم يختم حديثه عن الغربة/الرحلة بالقول: «وقالوا: الحنين إلى الأوطان من أخلاق الصبيان، وفي طول الاغتراب فوز الاكتساب، وفي فائدة صالح الأخوان مع النزوح عن الأوطان سلو عن مقارنة الجيران. ولولا اغتراب الناس عن محالّهم ضاقت بهم البلدان... قال: ولولا اغتراب المغتربين ما عُرف ما بين الأندلس إلى الصين»[2].

---

(1) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص 19.

(2) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، طبع مدينة ليدن 1302هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص 47 . 50.

لقد كُتبت في عصر ألق الحضارة العربية ـ الإسلامية تصانيف كثيرة عن العالم غير الإسلامي، بما فيه أوروبا، كما لو أن الشعور بالوحدة الداخلية التي تجمع الأمة الإسلامية، بما يحمله من ثقة بالذات ومعرفتها، قد نقل حب الاطلاع إلى الحدود، فأمضت دار الإسلام ثلاثة قرون، من منتصف القرن السابع الميلادي حتى منتصف القرن العاشر، تعمل على اكتشاف تنوع البشرية تحت شعار وحدة رسالتها[1].

ولقد تنوعت الرحلات العربية في العصر الوسيط بتعدد أسبابها ووظائفها. فهناك رحلات قامت لدواعي الإيمان أو المعرفة الدينية، وهناك الرحلة الاستكشافية/المعرفية، فضلاً عن الرحلات التجارية والإدارية والرحلات التي قامت بغرض سياسي: كالسفارة والجاسوسية.

فإذا كانت الرحلات العربية ـ الإسلامية إلى بلاد الشرق الأقصى قد امتزجت بالتجارة والفضول المعرفي، فإن رحلاتهم إلى أوروبا طغى عليها الهم السياسي أولاً، والهم المعرفي ثانياً. وهو الأمر الذي أشار إليه ميكيل بقوله: «فإذا كانت التجارة في ما وصلنا من قصص، قضية مرتبطة بالرياح الشرقية الخاصة، والرياح الجنوبية ثانوياً، فإن السياسة توجه أنظارنا بالأولوية بأشكال السفارة والتجسس أو الحرب، إلى الجوانب الشمالية من تركستان وإلى أوروبا المتوسطية»[2].

اقترنت الرحلات السياسية بالسفارات المتبادلة بين مركز الخلافة في بغداد، أو قرطبة، فضلاً عن الجواسيس والأسرى، ومن أقدم السفارات سفارة يحيى بن الحكم البكري (الغزال) (ت 250هـ ـ 864م)، الذي بعثه عبد الرحمن بن الحكم أمير قرطبة إلى القسطنطينية، وإلى بلاد النورمان في الشمال، وسفارة ابن فضلان إلى بلاد البلغار، وسفارة إبراهيم بن يعقوب إلى الإمبراطور أوتو. أما الجواسيس فأقدمها جاسوسية (سيد الغازي) الذي استعان به هارون الرشيد للتجسس على بلاد الروم عشرين سنة. والأسرى، كرحلة

(1) ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، ج 1، ق 1، ص 210.
(2) المصدر نفسه، ص 210.

الجرمي إلى بلاد الروم، ويحيى بن هارون. أما الرحلات الدينية فتأتي في مقدمتها رحلة عبادة بن الصامت، والهروي، ومحمد بن موسى. أما الرحلات الاستكشافية، فتأتي في مقدمتها رحلة سلام الترجمان إلى ما يُعرف بسد يأجوج ومأجوج في الشباب، ورحلة الشباب المغرَّرين في المحيط الأطلسي.

فكانت أول الصور التي التقطها العرب ـ المسلمون عن أوروبا، قد بدأها الرحالة، والتي وجدت السبيل إلى التدوين لأول مرة عند الجغرافي ابن خرداذبة. الذي عكس بدايات تشكل صورة أوروبا في الآداب الإسلامية[1].

واختلطت معلومات الرحلات، في كثير من احيان، بالمدونات الجغرافية، إذ لم يدون الرحالة العرب أخبار رحلاتهم الأولى، ولكننا لا نصل إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ونقرأ كتب الجغرافيا والتاريخ التي نجدهم ـ وقد دونوا أخبار الرحلات الأولى ـ قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم[2].

فثمة ما يشير إلى أن العرب لم يستطيعوا أن يكونوا صورة قريبة من الوضوح عن أوروبا إلا في القرن التاسع الميلادي، مع تراكم الترجمات والتعرف على جغرافيا بطليموس، والجغرافيا اليونانية، وازدياد المشاهدات الشخصية للسفراء والرحالة والتجار، مما مهد لقيام جغرافيا عربية تستقي عن تلك المصادر، التي تقف في مقدمتها الرحلة، معلوماتها المتناثرة عن أوروبا، فظهر أمثال ابن خرداذبة وابن واضح واليعقوبي، ثم ابن رستة وابن حوقل والأصطخري[3].

ويمكن القول إن ما كتبه المؤلفون الإسلاميون، فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين عن الرحلات كثير جداً، ولكن المعروف أن أكثر الرحالة لم يدونوا أخبار رحلاتهم إلا نادراً، أما معظمهم فقد حفظها لهم ودونها

(1) خالد زيادة: تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983، ص 16.

(2) شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، مصر، ص 4، دون تاريخ، ص 49.

(3) زيادة، المصدر السابق، ص 13.

أصحاب كتب التاريخ والجغرافيا[1]. فنحن لا نعرف الكثير من مشاهدات الرحالة إلا من خلال مقاطع من مصنفات نقلها كتاب آخرون، إذ إن التاريخ لم يحفظ لنا من الرحلات العربية إلى أوروبا حتى القرن العاشر الميلادي، سوى ثلاثة نصوص أساسية لرحالة هذا العصر، وهي رسالة ابن فضلان، ورسالتي أبي دلف مسعر[2]. فقد تداخلت الرحلة والمصنفات الجغرافية، وتشابكت، فهناك جغرافيون حفظوا لنا وقائع الرحلات، كما أن هناك جغرافيين رحالة اعتمدوا على مشاهداتهم المباشرة أساساً. فالجغرافيون الأوائل كابن خرداذبة وابن رستة وابن الفقيه واليعقوبي، حفظوا لنا الكثير من الرحلات، حيث دوَّن ابن خرداذبة والمسعودي رحلة محمد بن موسى إلى الرقيم، وحفظ لنا ياقوت الحموي وابن القفطي رحلة ابن بطلان، وحفظ لنا رحلة عبادة بن الصامت كل من ابن الفقيه والحموي والقزويني. وذكر ابن خرداذبة والحموي والقزويني والغرناطي والإدريسي والنويري رحلة سلام الترجمان إلى الشمال. كما ذكر ابن خرداذبة والمسعودي وابن الفقيه وقدامة بن جعفر، رحلة مسلم الجرمي (الأسير). وذكر لنا ابن دحية والمقري شذرات من رحلة الغزال إلى القسطنطينية وبلاد النورمان. ودوَّن البكري والقزويني وياقوت والإدريسي رحلة إبراهيم بن يعقوب. وذكر المسعودي والإدريسي والمغربي رحلة المغرِّرين. وبالمقابل فقد دانت المصنفات الجغرافية الأولى لمشاهدات الرحالة وموظفي البريد والتجار الذين استمروا في تقديم القسم الأعظم من الوثائق والمعلومات للكتاب القاعدين وراء مكاتبهم، المعتمدين على الوثائق المكتوبة والمتناقلة[3]. فقبل أن تظهر المصنفات الجغرافية الناضجة في القرن التاسع والعاشر الميلاديين، كنا نقابل معلومات عن البلدان المختلفة، بما فيها البلاد الأوروبية، عن طريق الرحلات التي بدأت كرحلات

(1) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، (سلسلة عالم المعرفة 138)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1989، ص 105.

(2) ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، ج 1، ق 1، ص 227.

(3) حميدة، المصدر السابق، ص 72.

خيالية دينية كرحلة تميم الداري، أعقبتها رحلات استكشافية عن الفداء والأسرى، وعندما قامت المصنفات الجغرافية الناضجة في القرن التاسع، تغذَّت بتلك المعلومات، وحفظت لنا الكثير من الرحلات السابقة[1].

ثم ظهر الرحالة الجغرافيون، وبجانبهم الرحالة الذين صنفوا رحلاتهم، وذلك في القرن العاشر، وأيضاً في القرون التالية.

(1) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص 20.